الفصل الثامن

القاهرة.. منازل الأموات

وفى أطراف العاصمة قطاع تقطنه الأغلبية العظمى. يقطنه الأموات. إنها مدينة أو قل ضاحية إن شئت، تمتد وتستدير مع مدينة الأحياء ما بين شوارعها المزدحمة وتلال المقطم - تلك الخرطة المقسمة درويها تقسيمًا هندسيًا تتبين لك إذا وقفت عند مسجد الجيوشى فوق القلعة من أعلى الحصن الذى قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة. إنها ليست أرض الجبانة وإن كانت القبور جزء منها، بل هى مدينة مسطحة وحشية اللون، لها هى أيضاً شوارعها، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد، ولكنه إذا دق

الباب لن يفتح له أحد، فإذا دفعه دخل إلى مأوى كأنه مسخ للمعتاد من مساكن الأحياء: حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب. وفى كل منهما نصب مستطيل من حجر أو جص، وتحت أرض إحدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الاسرة، عزلهم الموت عن الإناث المدفونات فى قبور الحجرة الأخرى. ويسجى الميت على لوح من الحجر، مكفناً ولكن بلا ناووس. ومتاح لك زيارة مقابر المماليك، حكام مصر خلال ستة قرون، وزيارة المسجد الذى يضم رفات سلالة محمد على، ويرجع عهده إلى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة.

وأعرف فتى مصريًّا ولد ونشأ فى أمريكا، ذهب أخيراً إلى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته، وكان لم يألف بعد عادات بلده، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له فى اهتمام خاشع انه أتى إليه من بعد أن ألقى السلام على أخته. لم يفهم قوله أول الأمر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعنى أختًا له ماتت فى طفولتها قبل مولده، إنها كانت راقدة فى قبر الأسرة طوال السنين وتزار هى أيضاً.

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل أربعة آلاف سنة، فإن فى مدينة الأموات التى وصفتها ما يكفى للرد عليهم. كان الرومان يحرقون موتاهم، والإغريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق، أما الدين الإسلامى فمن سنته دفن الميت فى قبر لاحد لبساطته حتى إنك تستطيع بيدك أن تسويه بالأرض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفى منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الآن فى الرياض من يذكر أين هو ولا بقى من يزوره).

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الإسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات، ففى الأيام المشهورة على مدار السنة - كأيام العيد الصغير الذى ينتهى إليه شهر الصيام، وأيام العيد الكبير الذى يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة - تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الأموات، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج إلى نزهة، متلهفًا على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الأثواب الجديدة فى العيد أو التمتع بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة

فى مـواسمهم أيضـا، وان اختفت اثنتـان من عـاداتهم - الآن لا تحنيط للمـوتى، والدفن فى الضفـة الشرقيـة من النيل حيث تشرق الشمس، أمـا عند الفـراعنة - اللهم إلا أيام هرطقة أخناتون - فقد كان الميت يدفن - بعـد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقاً لدخل الأسرة - فى الضفة الغربية من النيل، حيث مملكة أوزيريس.

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة، وما الأهرامات والقبور الغـائرة فى الصخـر إلا محاولات لتضليـل هؤلاء اللصوص. وأهـل القاهـرة يعانـون منهم اليوم أيضاً، شأنهم شأن أجدادهم. وهناك قوة من الحرس تجوب المقابر، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم أيضـاً، قـامت متاجـر صغيرة تبيـع الشاى والأدوات المـدرسية. وبعض الغـرف المبنية فـوق المقابـر قد اتخـذهـا النـاس مساكن لهم، ولكن بالرغم من قوة الحـرس وبالـرغم من الغول الذى تقول الأساطير إنه يسكن فى ظـلام المقابـر، فإن كثيراً من الأسر تعمل المقص فى أكفان موتـاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة.